أعتاب الفردوس

بقلم : هدى جاد

يحس ناهد على اريكة الصالة ذات الوسائد .. ان الاريكة واسعة .. عريضة .. طويلة .. تماما كحياتها .. يحيل لناهد انها متزوجة من عشرين عاما .. مع انها .. هي نفسها .. لم تتم بعد العشرين من عمرها

تأمل ناهد .. الوسائد .. المربع منها والمستدير .. والتي صنعتها وطرزتها وتفننت في اختيار الوانها .. لقد حفظتها عن ظهر قلب .. كما حفظت كل زاوية من زوايا البيت .. عدا الباب الضخم الذي يفصل بين حائطين .. حائط الصالون وحائط الصالة .. الاخشاب السميكة تفصل بين مسلفه .. ذات الزجاج السميك عن الشقاف ..

يالتشابه انه كحياتها ؟ .. التي تقف حاجزا منيعا .. شامخا .. عريضا .. تفصل بينها وبين زوجها .. زوجها ؟ وهل هو يستريح لكل الازواج .. أو .. حتى .. بعضهم

لو كانت الزوجات .. هكذا مثلها .. يمس في الصباح .. لاعداد الافطار وظهرا لاعداد الغداء و .. لا .. انها لاتعد العشاء .. فزوجها ـ غالبا ـ ما يتناوله في الخارج .. أين ؟ انها لاتدري .. ويجب الا تدري لقد حذرتها حماتها مرارا بالا تفكر في هذا الأمر الذي لا يخصها بتاتا .

ولو كان الأزواج هكذا .. على شاكلة زوجها .. لعاش الناس كلهم في حاله انفصال . ثم تتنهد وتحاول أن تريح جسمها المكدود فتستند بظهرها الى الوسائد وادا بها تكاد تستلقي .. وتتعجب .. هل لأن الأريكة واسعة .. عريضة .. طويلة .. أم لأنها هي نفسها .. صغيرة .. قصيرة .. نحيفة . وتحس بالضجر فتزفر الى البيانو .. بحسرة ..

كم تحب الموسيقى .. وتستعذبها .. انها ـ أحيانا ـ تذيب اشجانها فتطلق الدموع من عينيها وأحيانا .. تشدها الى أعلى .. فتحلق وتحلق ويزداد وجيب قلبها ..

تمد يدها وترفع غطاء البيانو لكنها سرعان ماتعدل عن فتحه .. اذ تتذكر في الحال اوامر حماتها ! ـ اسمعي يابنت هذا البيانو .. وزينة .. تحفة .. يدل على عظمة البيت وأصله .. لكن لاتحاولي ان تصدعي رؤوسنا بالعزف عليه .. اياك أن تفتحيه .. أنا عندي ضغط .. أم لعلك نسيت ؟

ولا تجد ناهد طريقة تخفف بها عن نفسها .. الا أن تدير ظهرها لما تحبه وتستعيد بعض ذكرياتها ..

انها ريفية .. ولدت في قرية صغيرة متواضعة ولم تعرف لها أهلا غير أمها .. وقد مات ابوها قبل أن تولد

عرفت فيما بعد .. أن فردوس هانم ـ حماتها حاليا ـ كان وما زال عندها غرض تدر عليها ايرادا شهريا في نفس بلدهم .. وعرفت أيضا .. انها عندما أتمت العام الخامس عشر من عمرها خطوها لاسماعيل .. لم تكن قد قطعت شوطا طويلا في المدرسة .. ومع ذلك فقد فرحت .. فرحت بالمطبخ .. سترتدي الأثواب الأنيقة البراقة وتتحلى بالمجوهرات وتركب القطار .. والأهم من هذا كله .. أنها ستشاهد مصر .. مصر أم الدنيا ..

انها تتذكر جيدا بعض كلمات تبادلتها أمها مع حماتها فقد قالت الاولى ـ الست لم تزل صغيرة لاتكاد تعي او تقدر مسئولية الزواج ..

لكن حماتها الطويلة العريضة ترد بصوتها الأجش المتهدم : حد يطول .. باست بهية .. اسماعيل .. ليس لأنه ابني .. فهو طيب وهادىء .. ثم لاتنسي ان كل مصاريفها علينا .. جهازها .. والمفروشات .. كل حاجة عندي كاملة .. هيه .. ما رأيك ؟ أنا اخترت ابنتك لأنها ـ بالذات ـ صغيرة أربيها حسب مزاجي !

وناهد مسالمة وقد استطاعت التغلب على كبح رغبتها في العرف على البيانو بأنها كثيرا ماكانت تختلس لحظات وتدير ـ الراديو ـ حتى يصل اليها صوته وكأنه يناجيها أو يهمس اليها وحدها .. أما المصيبة الحقيقية فهي في التواليت نفسه ..

انها لاتكاد تتصور ان امرأة ناضجة مثل حماتها ومن بيت كريم ـ كما تقول الحماة ـ تتناولها الأطعمة .. وكأنها تربها .. قائلة في ذلك : لقد ازداد وزنك أكثر مما يجب وأخشى أن يكون هذا أحد العوامل التي تعوق حملك ..!

وتفهم ناهد .. المرمى .. فحماتها تذكرها بلوعتها وبأنها لم تحمل من زوجها ولا .. مرة .. وهي لا تعرف لذلك سببا .. ولكن الحقيقة ان حماتها شحيحة .. شحيحة في عواطفها .. وفي مالها ..

آه .. على ذكر المال ان قريب حماتها ، السيد عبد الله ، الرجل الكهل الذي جاوز الخمسين من عمره .. الأعزب بعد أن ماتت زوجته من عشر سنوات .. هذا القريب ـ من العصب ـ لايرثه شخص .. الا .. الست فردوس وهي تطمع في أن تسبق زوجها بعد أن يموت .. وتساءل ناهد نفسها ... مادامت تحب المال هكذا فلماذا لاتنفقه في الغذاء .. أو الكساء .. أو اشياء .. كالرحلات والأسفار ؟

وتقوم ناهد من على الأريكة الطويلة العريضة .. غير المريحة .. وتفتح .. الباب الضخم الذي يفصل بين الحائطين .. حائط الصالون وحائط الصالة .. وتمسك بالمقصة محاولة ازالة الغبار من على التحف الدقيقة التي تزين الصالون .. وتتراءى لها الصور .. صورة زوجها اسماعيل .. ان له ضحكة بلهاء ووجه عادي لا هو بالقبيح ولا بالوسيم .. لكنه بليد .. وتبدد الفته .. أكثر مما يجب .. كيف لا ؟ انها لم تشاهد أحدا من الرجال سواه

ومرمدة قريبة شاهدت ضحكة السيد عبد الله فأيقنت لماذا سمي الرجال .. بالجنس الخشن !

ان اسماعيل يجالسها على المائدة .. ويقاسمها الفراش .. منذ متى ؟ منذ

كم من ثلاث سنوات تذكر في أول مرة عندما سألته : لماذا لاتخرج معا ؟

أن اجابتها وحواجبه مرفوعة تكاد تصل الى مفرق شعره : هل جننت يا ناهد ؟ هل نسيت رعبات أمي ؟

وناهد تعرف في نفسها الجبان والخوف ومع ذلك .. فقد عقبت على قوله : وماذا يضيرها لو خرجنا معا أو .. حتى لو صاحبنا ؟

فيرفع يديه متضجرا ويدمدم : قلت لك مرارا .. ليس لنا ان نعارضها .. هي كل شيء في حياتي .. ومرضاتها يلزمني ان ارضيها ..

ان اسماعيل بلا وظيفة .. وهذه أيضا احدى رعبات أمه فهي تخشى عليه من ارهاق العمل وتقول : حاضر الدائم للوظيفة ما دمت اتحمل كل أعبائها البيت ..

الحماة تنفق وناهد تعمل .. تكنس وتمسح البلاط وتطهي الطعام ..مرات قليلة أو نادرة تشاركها الست فردوس في طهو بعض ألوان الطعام .. التي تفضلها الحماة ..

حياة يومية .. رتيبة .. خانقة

ناهد حميلة .. بل رائعة .. لقد تأكدت من ذلك عندما كانت تمنح بائعة خضرة يومها وادا بصغير مهلهل يملو تحلله عبارات .. ما احملك !! سبحان الخلاق ..

ولولا حياؤها وخوفها لاحترات واكتشفت صاحب الصغير وعبارات الاعجاب ، أهو من الحيران أو عابر سبيل

اذن فهي تفتقد الكلمة الحلوة النابعة من القلب أو .. حتى .. لمجرد الاعتذاب

فمنذ أن ماتت امها الغالية لم تعد لديها مرب أو حبيب .. وهي ثمرة أخرى جديدة تفقد منها مخالب حياتها لتربدها نهشا وتجريحا .. ومع ذلك فناهد تملك مدخرا من الحب لحياتها فهي تكاد تقارب عمر امها .. فلم لاتعمل الحماة على ان تكون أما لولدها ولزوجه .. كلمة طيبة .. ربتة حنان .. لمسة تشجيع .. حتى ترتفع معنوياتها وترى للدنيا ظلالا ووردية بدلا من ظلالها الحالكة ..

كم من مرة حاولت فيها أن تتقرب الى الست فردوس عساها بذلك أن ترضي بعض جوانب نفسها .. فهي في احتياج الى أثواب حديثة راضية ان لم ترضي زوجها فحسبها أن ترضي غرورها وأنوثتها .. وقد تحيرت الوقت الذي تصبح فيه شعر حياتها (بالعة) وحياتها بين يديها ،وهي من المرات النادرة ، التي تستكن فيها الحماة لأن أية حركة منها سواء متعمدة أو غير متعمدة تلغب عملية الصباغة ..

قالت ناهد واصابعها الدقيقة تتخلل شعيرات رأس حماتها بحنان وتؤدة : يا أمي .. أريد ..بل التمس منك أن تهبيني بعض المال ! ... لأصبح ثوبين. لقد اعجبتني بعض الموديلات التي شاهدتها في بعض المجلات ..

وبسرعة خاطفة .. انتفضت الحماة وبدأت.. كتل الحمة تتساقط على عنقها وصدرها الذي اخذ يعلو ويهبط وهي تهيني بعض المال ! ... لأصبح ثوبين. اذن فهي التي أفسدتك .. وجعلتك تهملين في أداء واجباتك المنزلية .. والآن صرحي.. واعترفي كيف تحصلين على المجلات ؟

وناهد يتفاقم خوفها ويزداد ارتعاش يديها وكتل الحمة ما زالت تتساقط

عليهما معا .. لكنها تضطر للكلام فتقول .. من بائع الجرائد .

وعندما الست فردوس الصيفتان الشقليتان .. يرداد لمعانهما فتصرح في باهد .. اعمى من أين لك بالمال ؟

وتحس باهد بالاهانة فتبادلها الصراح قائلة .. من مالي ...

لكن الست فردوس التي تجيد السباب تقول .. مالك .. ها .. ها .. انت المقطوعة من شجرة .. المتسولة .. اعرفي مالك لصة .. خسيسة .. نهادين ... لتخدعي ... أنا الطيبة وانت السادج ..

وترد باهد بصوت مرتفع .. تجرحين شعوري وتسبيني من أجل قروش أو مليمات ... أنتما الشحيحة ... المجور ..

وفي الحال يحتاج الغضب كل كيان الست فردوس فتقوم من جلستها وتصرح تستعلين وجودي بين يديك .. لكنني استطيع الاستعانة بالست أم محمد (الماشطة) فهي تجيد الصياغة وتحسنها أكثر منك أما الحنة فها هي واخلت تقذف باهد بها ولا تكتفي بهذا بل تصفعها على وجهها صفعات قويه عنيفة ...

تذكر باهد أن الدهول اصابها ومن هول المفاجأة لم تستطع أن تفعل شيئا حتى الدفاع عن نفسها ويبدو أنها استلمت وجهها لحماتها حتى تورم وانتفخ واحمر وتذكر أيضا أنها تعمدت الا تقول لروحها شيئا فهي تستطيع أن تحدس ما سيقوله لها .. ان ارضيتك أغضبت أمي وان أرضيتها أغضبتك .. ياقد عليك .. دعيني في حال .. وانا واثق أنه في خلال أيام .. سيتم الصلح بينكما ...

كانت باهد تحمل لحماتها بعض الحب مؤملة في ذلك أنها في يوم ما ستستطيع ان تجعلها ان ... تحبها ... تطيعها باخلاص ووفاء . لكن ... بعد هذه الحادثة لم يبق في نفسها شيء ... ولا حتى الكره .. كانت ترمو الى حماتها وكأنها ترى شبحا هائلا لشيطان لاسبيل للفكاك منه .. أحد طلاله ... روحها اسماعيل .. طلاقها من الامور المستحيلة .. عمادا تملك هي ليتزوجها آخر ... مال ؟ .. نسب ؟ .. ثقافة ؟ انها لاتملك شيئا سوى جمالها .. جمالها ؟ وهل هي حقا جميلة ؟ المجرد أن أحد العابرين أطرى ملاحتها ؟

أهي حقا تعيش ؟ أين ؟ في هذا البيت الكئيب الموحش البارد الجاف ؟

لو قدرلها أن تصاب بالعمى لاستطاعت ـ وبمهارة ـ أن تعرف كل دقائق البيت وروايا ، ثلاث سنوات أو مايقرب وهي تعيش بين جدرانه وله ...

ثلاث سنوات أو ما يقرب وهي تمشي وتتفاني في البيت وأهله .

ثلاث سنوات أو ما يقرب وهي لاترى ولا تعرف أحدا الا الست فردوس من دنيا النساء واسماعيل من دنيا الرجال .

ولكنها تملك شيئا ثمينا ... شيئا ثمينا وباقيا ... عملها !!

ثم تتنهد وتتأمل ـ مرة ثانية ـ كل زوايا حجرة الصالون ـ وعندما تتأكد من حسن زوائه وجميل طلاءه وتنسيقه تطلق زفراتها الحائرة أو ... الساخن الضخم ..

وتهرول ناحية المطبخ لتستوثق من ان القطرة التي أدخلتها الى الفرن .. لم تصبها مكروه وتتذكر السيد عبد الله ـ والدي من أجله وسواد عينيه ـ صنعت له تلك القطرة !

والسيد عبد الله جاوز الخمسين لا تنم ملامحه عن شيء له وجه غير متناسق

اللامع وشعر كله الشيب وجسم غير محدود المعالم ربما كان قصيرا .. فهو ممتلىء بحيث يختلط طوله بعرضه وربما كان أميل للطول عن الست فردوس وانها اسماعيل يشرئبان بعنقيهما عندما يتحدثان اليه ...

وترى ناهد ان حماتها تتودد كثيرا للسيد عبد الله خاصة في الآونة الأخيرة .. ومن لمسات ترددها انهما تصر على صنع فنجان القهوة بيديها (من البن البيتي المحوج بالهيل والمستكة) .

ولا يغيب عن بال ناهد ـ الدافع ـ فقد سمعت حماتها أن السيد عبد الله يهوى الروائح بصبية حلوة من الفريبات ـ على آخر الزمن ـ وطبيعي ان يرزق بأطفال أو ـ على الاقل ـ بطفل يقف حجر عثرة بين الميراث وبين الست فردوس .

وبالرغم من أن العلاقة التي بين ناهد وحماتها انحدت ـ في الآونة الأخيرة عند تلك الحادثة لونا فاترا ... بالرغم من ذلك لم تستطع الست فردوس التحكم في أعصابها فكانت ـ من حين لآخر ـ تحرج شكواها وقلقها لزوجة ابنها قائلة والله عال .. بعد أن ملأ الشيب رأس السيد عبد الله يفكر في الزواج .. وأنا ... أنا أخرج من المولد بلا حمص ... انتظر السنوات الطوال وأتودد اليه وأعامله أحسن معاملة وأكرمه عندما يجيء من بلده وبعد ذلك يضيع مجهودي وتزول أموالي الى طريق آخر ... حديد .. ثم تحيط كفيها .. وهي تدمدم .. انكم لا تعرفون قانا لا أنام من الليل الا دقائق .. لكن من يهمه أمري ؟ من يتحمل المسئولية ويقلق غيري ؟

كان الله في عوني ... !

وتفكر ناهد .. مليا في الأمر .. ثم تبتسم بينها وبين نفسها انها تدكر جيدا كيف كان يتأملها السيد عبد الله عندما تجالسه وتسامره وتحييه بارق الالفاظ والعبارات وكأن الدنيا كلها قد خلت من الرجال ولم يعد فيها سواه ...

كان يحدثها بعينيه ويخاطبها بشهدات والهة ناعمة من القلب ... خاصة عندما تكرر له قولها .. لم يعد لي سواك ياسيد عبد الله .. فأنت عطوف كريم ... طيب .. ثم انك جذاب وتشفع قولها بشهيدة .. اني انتظر مجيئك بفارغ الصبر .. البارحة ... البارحة بالنسبة لي يوم الوقعة أما اليوم .. فأنت تزورنا .. أعني .. تزورني ... ! فهو يوم عيد .. فكيف يخطر لك ان تتزوج وتتركنا ؟

لكنه يقاطعها وهو مبهور بحماسها وهل زواجي يتعارض مع زيارتي لكم ... أعني .. لك !

وترفرف قائلة صاحب بالي كذاب .. ثم اني لن أجالسك بمفردي كعادتي بل سيكون معك ... من ... يفصل بيننا ! اللياقة تقتضي منا ذلك !

وتذكر ناهد هيئة عينيه المحدقتين وهو يقول لا .. لا يا ناهد لي تحرميني من حديثك وعطفك انك رادي .. وامتي .. و ...

وتبتسم ثم تومئ اليه بحيث ، وماذا أيضا .. هه .. لماذا لاتقولها ؟

وتسارع انفاسه وينهمك ثم .. يرتج عليه القول ..

لكن سرعان ما تعبق ناهد من تأملاتها وتتنبه .. ان الطيرة التي بداخل الحرن قد حان ميعاد نضجها فتحرجها .. وتتركها .. للحظات حتى تبرد !

وتهرول الى حجرتها وتتزين .. وبعد لحظات تسمع رنين جرس الباب

الخارجي فتخطو خطوات واسعة وتفتح الباب على مصراعيه وهي ترحب : أهلا .. أهلا بالسيد عبد الله .

يجالسها كعادته .. والست فردوس داخل المطبخ تهيء فنجال القهوة ..)

وعند انتهاء الزيارة تشير ناهد بسبابتها قائلة لحماتها : عندي لك خبر .. تنتظريه من زمن وتبرق عينا الست فردوس وتسألها بلهفة مستحدثة طمنيني بالله عليك ..

تبتسم ناهد ابتسامة واثقة وتقول وهي تخرج كلماتها ببطء مثير : أعني .. أعني بخصوص السيد عبد الله ..

ثم تتأمل ناهد قسمات حماتها فتشاهد الذهول ثم الشك ثم الحيرة .. وأخيرا اللهفة العاصفة فتخرج كلماتها متقطعة متحشرجة : لم يعد لدي أعصاب يا ناهد .. بالله عليك طمنيني هل قرب ميعاد زفافه على عروسه الصبية الفاتنة

فتضحك ناهد ضحكات مجلجلة مرحة وتستأنف قولها : عروسه الصبية الفاتنة ؟

لقد كانت الطعم !.. ذكرت له ثلاثتهما التي تكفي ـ واحدة منهما ـ كي يعثر أفضل عريس ناجيا بنفسه . ولعله لايعيب علي ناك أن ذلك غير صحيح فهي فتاة فاضلة عادته .. لكن ... ليس من أجل اسماعيل أو من أجلي أنا تصرفت هكذا ـ ثم تشير بأصبعها ناحية حماتها بحماس ـ بل من أجلك أنت ... أنت وحدك .. قلت له هذه الأقوال وليسامحني الله وقد عدل .. اتسمعين؟ عدل نهائيا عن فكرة الزواج بتلك الصبية أو بغيرها تستطيعين التأكد من ذلك .. عندما يزورنا في المرة القادمة .. والآن ... الآن سأخرج ! وبمفردي ! ألا تريدين شيئا من الخارج ؟

ترد الست فردوس بصوت حالم : لا ... لا يا حبيبتي وارجو أن ترجعي لنا سالمة ! احذري خطورة الطرقات

تستدير ناهد ناحية الباب الخارجي وهي تهمس أشياء وأشياء ! ثم تبتسم وتناجي نفسها .. هل نسيت أنتها المجوز المخرفة أن الله وهبني عقلا ...؟

وأنت أيها الأبله .. السيد عبد الله .. تحياتي لك .. فانا مدينة لك بكل شيء ! ثم ترنو الى الطريق .. وتتنهد وكأنها تتمثل ويهتف صوت من أعماقها يقول .. سأخرج .. سأخرج لأشاهد الطرقات .. الناس .. العربات ... الحوانيت .. الحدائق .. الدنيا ... الدنيا ..

نعم ... ستخرج من و ... الى .. اعتاب الفردوس !